

نشأة اللغة وتطورها

للككتور عبد الحميد سند الجندى
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لمحة تاريخية

(١)

اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وأصلها لَعْوَةٌ بزنة فَعْلَةٌ بفتح الفاء ، من لَعَوْتُ بِمَعْنَى تَكَلَّمْتُ . وتُجْمَعُ عَلَى لَفَاتٍ وَلَعِينٍ بِضَمِّ اللّامِ وَكسْرِ العَيْنِ ، والنسبة إليها لَعَوِيٌّ بِضَمِّ اللّامِ ، وفتحها خطأ .

وقد اختلف العلماء في نشأة اللغات ، وهم في ذلك فريقان ؛ فريق يرى أنها وحى وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، علمها الانسان الأول . وكان أصحاب هذا الرأي يتوهمون أن الانسان حين خلق كان الوجود في حالة عماء وسكون مطبق ، فلم يكن يسمع صوتا ولا يحس من أحد . فكان من الضروري أن يُلهم لفته الأولى التي هي بمثابة الأداة الجوهرية في الاحتفاظ ببقاء ذاته .

وهؤلاء لا يكتفون بهذا القدر الضروري من الالهام ، ويزعمون أن الله علم الانسان لغات البشر كلها ، ما خلق منها وما لم يخلق ، وهي الآن تعدد بالآلاف . ومن أصحاب هذا المذهب أفلاطون^(١) ، وتابعه ابن فارس^(٢) والأشعري ، وغيرهم . وهم يستدلون على ذلك بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، أى ألهمه لغات العالم^(٣) . وجرى على غبارهم كثير من المفسرين كالقرطبي والنسفي والبيضاوي وغيرهم .

(١) تاريخ الفلسفة القديمة ليوسف كرم ص ٢١٠

(٢) الصحاح في فقه اللغة لابن فارس ص ٣٨

(٣) انظر مقدمة تاج العروس للزبيدي .

ونحن نرى أنه لا فائدة في هذا الإلهام ، ولا داعي الى تعليم الانسان الأول لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة اليه ، ولتعذر الاستفادة منه في ذلك التاريخ المفقود .
ويزيد في ضعف هذا الدليل أيضا تأويل الآية على وجه آخر ، وهو أن المراد بالأسماء في الآية الكريمة أسماء الملائكة . لا أسماء ولغات أهل الدنيا .

ويرى غير هؤلاء أن اللغة - وإن كانت قد حدثت مع الانسان في أول نشأته - تعتبر مع ذلك من أنواع الوجود الطارئة عليه . فهي خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغيير والتدرج في طبقات النمو ، والتحول في أدوار التماثل الى الكمال ، وأنها بناء على ذلك وققت بالتدريج عند درجات الحدوث من النطقولة الى ما يليها من صفات الكائنات الحية ، وكانت نتيجة لمواضع مختلفة بنية على دراسة تقليدية طويلة . وأهل هذا الرأي لا يأبَوْنَ التسليم بأثر الإلهام في تكوين اللغة على هذا النحو الفطري ، ولكنهم لا يفهمون أكثر من أنه الاقدار على الارتجال والتحويل ، أو التنويع في التقليد والمحاكاة بقدر ما في الانسان من قوة التمييز العاقلة التي ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم .

فالانسان الأول عندهم طفل تاريخي بدأ في أغلب الظن لغته الأولى بالأصوات الفطرية الدالة على الاتصلات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة والفرح واللذة والألم .

(٢)

وقد بدأ الانسان وسيلته التفاهمية بهذه الأصوات الفطرية وحدها^(١) ، ثم تدرج بعض الشيء ، فصحبها بالإشارة الحسية توسعا في التفاهم بها ، الى أن صار يدل على الشيء بالإشارة الى أوصافه ، أو الى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن في تعبيره عن الرجل بامراره يده على شاربيه ، وعن المرأة بتكوير يده ووضعها على صدره .

ثم أخذ الانسان بعد ذلك يحاكي الأصوات المختلفة التي تتقلب كل حين على سمعه ، وبين يديه ... من حفيف الريح ، وهزيم الرعد ، وخرير الماء ... ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن محدثه ؛ كما يسمى

(١) الخصائص لابن جني ٢١/١

الأطفال عندنا كثيرا من الحيوان بما يسمعون من أصواتها ، كأن يقولوا عن الدجاج « كاكأ » ، وعن الهرة « نونو » ، وعن الشاه « ماء ماء » ، وهكذا . ثم تكون له من تلك الأصوات مقاطع صوتية متنوعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسيرة لحاجات الحياة الأولية . ولما استقام له ذلك حكى على أمثاله ، وتابع ما يتجدد له من الحاجات بالوضع تارة ، وبتقليب الدوال القديعة تارة أخرى ، حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الألفاظ تدريجيا عن المحاكاة والاشارة ، وان كانت الوراثة المتعاقبة أبطت في لغات الانسان المتدين بعض ما يدل على استعاقته بالاشارة في تكوين لغته الأولى ؛ كما يشاهد في أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه ، وتقطيب الجبين ، والاشارة باليد ، والاياء بالحاجب واللحظ واللسان ، مما هو معروف .

وقد كان هذا الدور الاستقلالي للألفاظ على دهور متطاولة ؛ كان اللفظ الواحد يقع فيها على المعانى الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى والاسم والفعل . كما كان ذلك شأن الانسان في بقية فروع الحياة الأخرى ؛ اذ كانت القطعة من الجلد تقوم له مقام اللباس والفراش والآنية وغير ذلك ، الى أن استحدثت لكل نوع من هذه كفاية خاصة وسمى لها أداة جديدة . ومر ذلك التسلسل اللغوى أيضا بأجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور ، حدث له في خلالها التمييز بين الأسماء والأفعال ، ودخلت في لغته الحروف والأدوات ، وتولدت بعدها مميزات الجنس والعدد ، وبعض صيغ الأشتقاق ، وانتهى نوع ذلك الكمال اللغوى في بعض هذه اللغات بظهور الاعراب كما في اليونانية واللاتينية القديمتين . وظهرت أصول اللغات في أسرة الأمم الكبرى من أبناء نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقرب أول صفحة من تاريخ البشرية المعروف .

والى هذا القول بالمواضع يذهب أكثر المحققين من اللغويين وعلماء الأصول^(١) ، واليه ذهب من علماء العرب أبو على الفارسي من علماء القرن الرابع

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، ونشوء اللغة العربية واكتمالها للأب أنستاس مارى الكرملى . وتاريخ اللغات السامية لاسرائيل وتفنون .

الهجرى ، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى فى خصائصه . وقد عقد الأخير فصلا فى كتابه لبيان أصل اللغة : ألهام" هى أم مواضعه ؟ ، وقال فى آخره بعد أن شرح المذهبين : « وان خطر خاطر فيما يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبها قلنا به ، وبالله التوفيق » . ولكنه جزم بهذا الرأى وهو أن اللغة تواضع واصطلاح ، وقد قرر ذلك فى أول هذا الفصل فقال : « هذا موضوع محوج الى فضل تأمل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف ... وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذكر عرّف به مسماه ليمتاز عن غيره ، وليستغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين » . وفى ثنايا كلامه ينير الى رأى ثالث يتفق مع أقوال علماء اللغات اليوم فيقول : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة ؛ كدوى الريح ، وخنين الرعد ، وخرير الماء ، وشجيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل القرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » . وهذا الرأى يتفق وما أشرنا اليه منذ حين .

هذا هو رأى اللغويين العرب القدامى . وقد انتهت أبحاث علماء اللغات اليوم الى أن اللغة كائن حى خاضع لقوانين النشوء والنمو ، فهى ليست توقيفا ووحيا ، كما أنها ليست اصطلاحا وتواطؤا بالمعنى الذى فهمه ابن جنى وأصحابه ، وإنما هى اصطلاح طبيعى ينشأ عن محاكاة أصوات الطبيعة والحيوان . فاذا ما نشأت اللغة تضافرت عوامل شتى لنموها وتطورها حتى تبلغ مرحلة النضج . وقد لا تكون البيئة ملائمة لحياة لفة من اللغات ، فيؤول أمرها الى الاندثار والافتراض .

(٣)

وقد اصطلاح اللغويون من علماء العصر الحديث على تقسيم ما عرف من لغات الأمم القديمة الى راقية وغير راقية^(١) . وجعلوا من غير الراقية اللغة الصينية والمغة المصرية القديمتين . ويرجع بعض المؤرخين أن الصينيين والمصريين القدماء من أقدم الأمم التى نزحت من شواطئ الفرات قبل الطوفان ، وأن لغتيهما —

(١) محاضرات المستشرق الدكتور شاخنت فى الجامعة المصرية .

في سذاجتها وقتلتها — ترجح اتصال نسبها بقايل أحد أبناء آدم ، وبخاصة وأن التوراة قد وصفت نسل قايل هذا بالمهارة في الصناعة . والمعروف أن الصينيين من أقدم من عرف من أمم الأرض بالحدق في الصناعة .

ومن اللغات غير الراقية أيضا اللغات الحامية التي منها لغات زنوج افريقية وهنود أمريكا الذين هم على الراجح عبيد افريقيون استخدمهم الأسبان في هذه الأصقاع بعد الفتح .

وأما الراقية فقد جعلوها قسمين : متصرفة ، وغير متصرفة . وغير المتصرفة هي اللغات الطورانية أو المغولية ، وهذه تشمل الفروع التي يتفاهم بها سكان البلاد التي تقع بين شرقي النمسا وآسيا الصغرى ، فبلاد التتر ، ومنها التركية . ومعنى عدم تصرفها أن الاشتقاق فيها يكون بالحاق أدوات لا معنى لها في نفسها لأصول ثابتة لا تتغير ، مثل كلمة « ياز » ، ومعناها في التركية الأصل الدال على الكتابة ، ويؤخذ منها الماضي بالحاق « دى » فيقولون « يازدى » أى « كتب » . وكذلك يفعلون عند النفى والجمع وغير ذلك ... يضيفون أدوات كثيرة وتبقى الكلمة كما هي .

وأما المتصرفة فهي السامية والآريّة ، ويقال للأخيرة أيضا « اليافثية » نسبة الى يافث بن نوح ، ومنها (أى من الآريّة) لغات جنوبي آسيا التي منها « السنسكريتية » وفروعها كالفارسية والهندية والأفغانية وغيرها . ومنها لغات أوروبا التي أشهرها اللاتينية وفروعها من لغات فرنسا وإيطاليا وإسبانيا . ومنها يونانية القديمة والحديثة . ومنها لغات روسيا والبلقان وإنجلترا وألمانيا وهولندا والدانمارك .

وأما السامية^(١) ، أى المنسوبة الى سام بن نوح ، فتمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوراة والانجيل والقرآن ، وبأن التمدين القديم ظهر أولا بين المتكلمين بها في بابل وآشور وفينيقية ، وهي اللغات البابلية والأشورية والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والحبشية والعربية . ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعربية والآرامية .

(١) ارجع الى كتاب تاريخ اللغات السامية لولفسون .

اللغة العربية

(١) أصلها :

هي إحدى اللغات التي أطلق عليها العالم « شلوتسر Schlozer » اسم « اللغات السامية ، معتمدا على جدول أنساب النبی نوح المذكور في التوراة . ومن هذه اللغات أيضا البابلية والأشورية والعبرية والآرامية « ومنها السريانية » ، والكنعانية والحبشية ، وقد افترض جل هذه اللغات .

والواقع أن المؤرخين لا يستطيعون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل على يمينون به الأصل اللغوي الذي انشعبت منه هذه اللغات السامية التي تُنسب إلى أب تاريخي يقولون انه سام بن نوح . ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامي الذي تفرعت منه هذه اللغات هو اللسان البابلي القديم ، فإن تلك ظنون أدى إليها وجود بعض المشابهة بينه وبين هذه العربية لا يتعد أن يكون سببها هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول . ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغير سامية يمكن أن تتصل في سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الانسان الأولى التي لا تزال هي الأخرى محتبئة في ضمير الزمن . وقد يُستأنس لهذا الاتصال بما بقي في لغات العالم المختلفة من المشابهة في بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة ؛ كضمير الخطاب ، فإنه اذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف « التاء » في أكثر اللغات .

وغاية ما توصل اليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية^(١) أنه لا بد أن يكون قد دخلها في أدوار التكوين شيء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحميرية والعبرية وبعض الآرامية القديمة . وبيان ذلك أن عربية عدنان الذي ينهى اليه عمود النسب العربي الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه إلى اسماعيل أبي العرب المستعربة . وهم يقولون ان اسماعيل عليه السلام كان له لسان آخر عبراني أو كلداني ، نسيه وتعلم العربية من العرب العاربة « أي القحطانية » حين هاجرت قبيلة جرهم الثانية إلى بلاد العرب ، ونزلت بمكة وامترح بهم اسماعيل بالمصاهرة والجوار ، ونشأ منهم ومنه جيل عربي جديد هم العرب المستعربة أو الاسماعيلية . ويقولون ان أولئك القحطانيين أصلهم من الحبشة ،

(١) اقرا كتاب اللغة العربية كائن حي لجورجي زيدان .

عبروا الى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا الى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من الميعنين الذين هم قبائل من بدو الآراميين ، أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا الى بلاد اليمن فعمروها ، وكانت لهم دولة قبل السبئيين والحميريين ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي انتهت بعد في آخر صورها بالحظ المسند أو القلم الحميري المشهور .

واذن تكون هذه اللغة العدنانية مزيجا موروثا من هذه اللغات السابقة ، وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض . وقد تمثلت بعد ذلك في المضربة الفصحى في الوقت الذي ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود حول أوائل القرن السادس الميلادي ، وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربية ، وصارت العرب تقريبا بما أدخلوه على لغتهم من ألوان التنقيح وعوامل التهذيب الى وحدة لسانية عامة لا يشوبها الا قليل من الخلاف في النطق الذي اصططح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات .

وتلك كانت العربية الفصحى ، لغة الشعر والنثر الجاهليين ، وعى لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم على أفصح العرب محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . وكانت قبل الاسلام محصورة في هذه الجزيرة العربية ، فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الاسلامية بين أواسط الهند شرقا ومضيق جبل طارق غربا ، وبين البحر الأسود شمالا وبحر العرب جنوبا ، ووسعت أصقاع العالم المتمدين من ذلك الحين الى وقتنا هذا .

والواقع أن هذا الذي نقوله في تطور اللغة العربية والأدوار التي مرت بها ليس مبنا على الجزم واليقين . فمن العسير أن ندلى بأن هذا رأى قاطع ، لأننا لا نملك أسانيد مادية نعتمد عليها في هذا التبع وتنتهي بنا الى نتائج يقينية .

وقد لاحظ أسلافنا منذ العصور الأولى اختلافا واضحا بين لغة سكان شمال الجزيرة العربية أو لغة عدنان ، ولغة سكان جنوب الجزيرة أو لغة قحطان . فقد نقل ابن سلام عن أبي عمرو بن العلاء قوله المشهورة : « ما لسان حمير وأقصى اليمن بلساتنا ولا عربيتهم بعريتنا »^(١) . وأورد ابن فارس في كتاب

(١) الشعر والشعراء ص ٨ طبعة صبيح .

«الصاحبي»^(١) أنه « زعم قوم من العرب أن العرب العاربة لم تعرف نحواً ولا اعراباً ولا رفعاً ولا نصبا ولا هزاً » ، وذكر في هذا المجال قصة عن وفود زيد بن عبدالله بن دارم على بعض ملوك حمير «فأنفاه في متصيّد له على جبل مشرف ، فسلم عليه واتسب له ، فقال له الملك : ثبّ ، أى اجلس . وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال : لتجدنى أيها الملك مطواعا . ثم وثب من الجبل فهلك ، فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغنطه في الكلمة ، فقال : أما أنه ليست عندنا عمريت ، من دخل ظفار همّر . وظفار المدينة التى كان بها ... أراد : من دخل ظفار فليتعلم الحميرية » .

من هذه الأحاديث وأمثالها يتبين لنا أن العرب أدركوا فرق ما بين لغة عرب الشمال وعرب الجنوب . وهم يزعمون من جانب آخر أن اللغة العربية الخالصة انما نشأت في بنى قحطان حين اختلط اسماعيل بإحدى قبائلهم كما ذكرنا . فاللغة العدنانية مأخوذة في الأصل من لغة عرب اليمن . ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أن الخلاف كان شديدا بين اللغتين ؛ فقد عثر على نصوص بها نقوش باللغة الحميرية لا تدع مجالاً للشك في مخالفتها للغة العدنانية في ألفاظها وقواعد نحوها . والواقع أننا لا نستطيع أن نضع حدوداً جغرافية واضحة تفصل شمال الجزيرة عن جنوبها ، وتبين لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القم الجنوبي من اللغة العربية ، ومن أين وإلى أين سارت اللهجات الشمالية من العربية .

وليس هناك من شك في أن اللهجات الشمالية قد أخذت قبيل الاسلام تتمتع بنفوذ كبير على سائر لهجات الجزيرة ؛ في حين أخذت لغة اليمن تضمحل حتى كادت تندثر في أواخر القرن السادس الميلادى . وكان مما أعان على سيادة لغة الشمال التدهور الاقتصادى والسياسى الذى ألم ببلاد اليمن ، وانتقال التجارة الى أيدي قرش . فمنذ ذلك الحين أخذت لغة العدنانيين تتمتع بسلطان بعيد على لغات الجزيرة ، ولم يكن هذا السلطان للغة قرش وحدها كما يتوهم بعض مؤرخى الأدب . وأخذت اللهجات العربية تتقارب وتتداخل ، وقد أعان على هذا التقارب عوامل شتى أبرزها اجتماع العرب في مكة لقضاء مناسك الحج ، واجتماعهم في الأسواق والمواسم التى كانت صبغتها تجارية وأدبية معا ، وكان

أكثرها بالحجز حاضرة التجارة ، كسوق عكاظ قرب الطائف ، وذى المجاز وذى
الجبنة قرب مكة . فلا جرم أن تسود لغة الشمال وتتقارب اللهجات العربية .

ولكن توحد اللغة العربية لم يكن متاحا الا بتوحيد الأمة العربية . وهذا
ما حدث فعلا بظهور الاسلام ونزول القرآن بلغة قريش . فقد تمت بزوله سيطرة
لغة الشماليين . وقريش خاصة ، على سائر اللهجات العربية التي أخذت في
الانقراض . والقرآن هو الذى ضم شتات اللهجات العربية فى لغة قريش ، الا
أنه ظلت بعض اللهجات القوية حية بعد الاسلام كلغة تميم . ثم تكونت من لغة
قريش ، وما بقى حيا من اللهجات العربية ، ومن الألفاظ الدخيلة المعربة ، هذه
اللغة العربية التى تضمها معاجمنا والتى نسميها العربية الفصحى .

(ب) عوامل ثبوها :

لعلك لاحظت مما سبقناه فى الكلام عن نشأة اللغات ميلنا الى المذهب
الوضعى ، والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة ، وليست وحيا ولا
توفيقا . وهى بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة ، بل كانت تتكون من الارتجال
والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضرورى . ثم
يتناولها بعد ذلك من دواعى الارتقاء وعوامل النمو أسباب كثيرة نجعلها فيما يلى :

١ - التفيم : وهو زيادة حرف أو أكثر فى صدر الكلمة أو وسطها أو نهايتها
وهذه أول مرحلة من مراحل نمو اللغة . فقد رجحوا أن الأصول الأولى للغة
العربية لسائر اللغات أصول ثنائية ، على نقيض ما ذهب اليه لغويو العرب
القدماء من أنها ثلاثية^(١) ، ثم زيد فى هذا الأصل الثنائى حرف أو أكثر فى أول
الكلمة أو فى وسطها أو فى آخرها للدلالة على معان متفرعة من المعنى الأصلى .
مثال ذلك للزيادة فى الوسط : من الأصل الثنائى (لم) نجد : لدم ، لطم ، لكم
لتم ، لثم ... الخ وكلها تدل على الضرب ، الا أن كلا منها يدل على نوع منه .
ومثال للزيادة فى الآخر : قطك ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم ... فكلها لأنواع مختلفة
من القطع . ومثال للزيادة فى الأول : أله ، بله ، تله ، دله ، عله ، وله ... وكلها
تدل على معنى التحير والجزع .

(١) انظر الزهر للسيوطى ٢٠٧/٢

ولبعض اللغويين العرب القدماء كابن جنى فى « الخصائص » والزنجشى فى « أساس البلاغة » لغات دقيقة الى ما يقوم بين الألفاظ من الاشتراك فى المعنى حين تشترك فى حروفها أو تشابهه .

٢ - القلب المكاني : وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد ، مع المحافظة على معناه ، أو انحرافه قليلا عن أصله . ومن ذلك قولهم : جذب ، وجبذ ، ولطم ولط ، وسكب وسبك . وكل هذه بمعنى واحد ، أو بعمان متقاربة . وكذلك قولهم : بعض وبضع ، وكلاهما بمعنى قطع . ويقولون : صاعقة وصاقعة ، ورجل شائك السلاح وشاكي السلاح .

ويحدث القلب فى اللسان اعتباطا فى الغالب ، وقد يكون سببه التخفيف فى اللفظ أو التفتن فيه . ومثل ذلك كثير الحدوث فى لغتنا العامية ؛ فيقولون ملعقة وملعقة ، ويقولون « جوز » بدل زوج ، ويقولون « أجا » فى جاء . وقد يختلف المعنى مع القلب وقد لا يختلف .

٣ - الابدال : وهو وضع حرف مكان آخر يقرب منه لفظا . ويقع غالبا بين الحروف التى من مخرج واحد ، أو من مخارج متقاربة ، وهو أعظم أثرا وأوسع دائرة . وأمثله كثيرة فى لغة العرب ، مثل : الحثالة والحسالة والحفالة للردىء من كل شىء ، واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب الى الحاكم أن ينصفه منه ، وغير ذلك من الأمثلة .

والابدال فى الغالب نتيجة علة طبيعية فى أعضاء النطق فى أول الأمر ، ثم يصيرها الاستعمال مستقلا عن الأصل ، وان حفظ معناه ، أو تغير عنه بعض التغيير وربما جعلوا لكل نوع من الألفاظ الحادثة ما يقابله من تنوعات المعنى الأصلى ، فيقولون مثلا : لطم اذا ضربه بكفه مفتوحة ، ولدمه اذا ضربه بشىء ثقيل . كما يقولون فى قضم : أكل بأطراف الأسنان ، أو أكل خشنا ، وخضم : أكل رطبا ، أو أكل بأقصى الأضراس . ومن نحو هذا ما نجده فى اللغة العامية المصرية ، فانهم يجعلون من لفظ « ثقيل » بالثاء المثناة لفظين ، لكل منهما معنى مستقل ، فقالوا : « سقيل » بالسين بمعنى ثقيل الظل ، وقالوا : « تقيل » بالثاء المثناة بمعنى رزين ، وقالوا فى « ثبات » « سبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر ، وقالوا « ثبات » بالثاء بمعنى صفاقة الوجه .

٤ - النحت : وهو صوغ كلمة من كلمتين أو أكثر نحو عبشمى وعبقى وعبدرى ، أى منسوب الى عبد شمس وعبد قيس وعبد الدار . وكقولهم « بسمل » اذا قال : باسم الله ، و « حوقل » اذا قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، و « حمدل » اذا قال : الحمد لله ، و « حسبل » اذا قال : حسبنا الله ، و « سبجل » اذا قال : سبحان الله . ومثلها « الطليقة » و « الدمعزة » فى أطال الله بقاءك ، وأدام الله عزك^(١) ...

وفائدة النحت اختصار الألفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق ، وهو مع ذلك تاء" فى اللغة ، لأنه زيادة فى عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها . ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف إنما هى بقايا ألفاظ لها معنى فى نفسها ، وأنها إنما صارت حروفا بعامل النحت ... ومن ذلك حروف المضارعة ؛ فانهم قالوا انهم أخذوا الهزمة من (أنا) ، والنون من (نحن) ، والتاء من (أنت) ، والياء من (هى) ، وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الأصول تقريبا ، فأدت المعانى مع اختصار اللفظ .

ورجحوا أن الأصل فى استعمال باء الجر كان للظرفية ، لأنها لا تستعمل فى اللغات السامية الا لها . وقالوا ان أصلها (بيت) ، بدليل أن هذه فى السريانية معناها فى أو بين ، ثم صارت (بى) فى الكلدانية ، ثم الباء وحدها فى العربية ، فكان الباء بقية لفظ (بيت) أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ^(٢) .

ولم يعد لأحد من المتكلمين بالعربية الآن حق فى استعمال الأسباب السابقة من عوامل نمو اللغة فى وضع ألفاظ جديدة على هذا النحو ، لأن ذلك - على ما يقولون - حق خاص بالعرب وحدهم ، وقد انقضى دهر. منذ القرن الثانى للهجرة . وان لك أن تقول حينئذ ان أكثر اللغات الحية قد يفضل اللغة العربية من هذه السبيل لخلوص هذه اللغات من قيود الصبغة الدينية التى دعت أهل العربية الى المحافظة على صورتها الموروثة ، استبقاء لطريق الشريعة ، وحرصا على سلامة الكتاب والسنة اللذين هما عماد الملكة وقوام الاسلام .

(١) انظر كتاب « الاشتقاق » لابن دريد ص ١٦٢ وما بعدها .

(٢) ارجع الى كتاب : تاريخ اللغات السامية ص ٢١

ولئن فاقنا الشيء الكثير من هذا فلن يفوتنا ما نتعوض عنه من وسائل أخرى
نذكر منها ما يلي :

٥ -- الاشتقاق : واللغة العربية من اللغات الاشتقاقية ، ويعتبر الاشتقاق
من أهم العوامل في نمو اللغة واتساعها ، وقد بنى على مقاييس ثابتة . وهو أداة
المجامع اللغوية حين تقصد الى وضع مصطلحات جديدة . ويحسن أن يصدر ذلك
عن نخبة من حملة اللغة ورجال العلم وأهل الصناعات المختلفة يمكن أن يثمر
مجهودهم ما يعد كفاية للحاجة على قدر المستطاع .

والاشتقاق معروف ، وهو أخذ كلمة من كلمة تشترك معها في مادتها وتركيب
أكثر حروفها ؛ كصيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والأداة ، وغير ذلك من
ضروب الاشتقاق .

٦ -- المجاز : ان الكلمة لا تحتفظ بمعناها الأصلى ، بل سرعان ما يكسبها
الاستعمال معانى أخرى مجازية يتصل بالمعنى الأصلى بصلات أبرزها المشابهة ،
وهو ما يعرف بالاستعارة ، وقد تكون العلاقة غير المشابهة ، ويكون ذلك في
المجاز المرسل . واذا شاع استعمال المعنى المجازى لغرض من الأغراض صار
بمثابة الحقيقة ، لا سيما اذا لاحظنا أن أكثر الألفاظ كان يدل في أول نشوئه على
المعانى المادية ، ثم صار يدل على المعنويات ؛ كلفظ العقل مثلا ، فانه من عقل
البعير أى ربطه ، وكلفظ الرحم بمعنى القرابة ، ثم الرحمة ، فهما من رحم المرأة .
وقد ضاعت الأصول الأولى لكثير من الألفاظ ، ولم تبق الا المعانى المشتقة منها .

٧ -- التعريب : أخذت اللغة العربية منذ أقدم الأزمان ألفاظا كثيرة من لغات
الأمم المجاورة ، برغم انزالها النسبى . وفي شعر بعض الجاهلين ، والأعشى
خاصة ، وفي القرآن الكريم طائفة كبيرة من الألفاظ المعربة نحو : استبرق ،
وجهنم ، وزنجبيل ، وطوبى ، وكافور ... الخ^(١) .

(١) يمكنك الوقوف على كثير من الألفاظ الدخيلة في القرآن بالرجوع الى
كتاب الاتقان للسيوطى ج ١ ص ١٤٢ وما بعدها ، وكتاب العرب للجواليقى
ص ٤ ، ٥

ولا تنفرد اللغة العربية بالاخذ عن اللغات الأخرى ، بل هو أمر مشترك فيه اللغات جميعا ، وينجم من اتصال الأمم بعضها ببعض من طريق المجاورة ، أو التجارة ، أو الحرب . او غير ذلك من أسباب الصلات .

٨ - الاصطلاح : أضيف الى اللغة العربية طائفة كبيرة من المصطلحات ، ولعل من أقدمها تلك المصطلحات التي جاء بها الاسلام ، كلفظ الاسلام نفسه ، والصلاة ، والزكاة . والكفر ، والصيام ، والنفاق ، وغيرها من الألفاظ التي أوجدتها الاسلام معاني جديدة غير معانيها الأولى .

(ج) خصائصها :

يذكر اللغويون خصائص تمتاز بها اللغة العربية ، فهي تمتاز من اللغات السامية باهتمامها على عناصر جند قديمة تمتد الى السامية الأم . ولهذا يرى بعض المستشرقين مثل الأستاذ « أولسهوزن Olshausen » أن العربية أقرب أخواتها الساميات الى اللغة الأم^(١) . وربما كان لانعزال الأمة العربية الى حد ما في جزيرتها التي تحف بها الصحارى والبحار ما يقوى هذا الرأي . ولكننا لا نستطيع اعتبار هذا الرأي يقينا علميا ثابتا لعدم توافر الأدلة .

ولعل من الخصائص التي تمتاز بها اللغة العربية الأمور الآتية :

١ - الاعراب : وهو من صفات العربية قديما وحديثا . ولا عبرة بقول من يقول ان من العرب من كانت له عامية ملحونة^(٢) ، فان ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلا نادرا لا يعتد به . ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة في مرتبة لغة الخاصة من الشعراء والأشراف .

ويبدو لنا أن اللغة العربية لا تنفرد بخصيصة الاعراب ، فقد كانت بعض اللغات القديمة تعرف الاعراب^(٣) . ولا تزال تعرفه من اللغات الحاضرة الألمانية

(١) نشوء اللغة العربية لانستاس الكرملى ص ٨٢

(٢) انظر كتاب الاصول العربية لاسد رستم ص ١١٠

(٣) انظر كتاب اللغة العربية كائن حتى لجورجى زيدان ص ١٨

والحبشية . وتكاد تسليخ عنه الألمانية على مرور الأيام . ولكن اللغة العربية سوف تحتفظ به الى يوم الدين .

٢ - دقة التعبير في الألفاظ والتراكيب : أما في الألفاظ فيكاد يوجد عندهم لكل معنى من المعاني وأجزائها لفظ خاص . فقد استوعبوا كل ما أحاط بهم ، فاطلقوا عليه اسما يميزه ؛ كاجزاء الحيوان والانسان والنبات والطيور والليل والنهار ، فجعلوا لكل جزء منها لفظا يخصه ... فساعات النهار مثلا : الذرور ، فالبشروغ فالضحى ، فالغزالة ، فالهاجرة ، فالزوال ، فالعصر ، فالأصيل ، فالصشوب ، فالحدور ، فالغروب . وهي أيضا : البكور ، فالشروق ، فالاشراق ، فالرأد ، فالضحى ، فالمتشوع ، فالهاجرة ، فالأصيل ، فالعصر ، فالطفنكل ، فالحدور ، فالغروب . وساعات الليل : الشفق ، فالعتمة ، فالشدة ، فالفحمة ، فالزشفة ، فالبهرة ، فالسحر ، فالفجر ، فالصبح ، فالصباح^(١) .

ومن ذلك تفرع المعاني من الفعل الواحد ، ونذكر مثلا لنك فعل « النظر » ، فانه يتفرع الى رمق ، ومعناه نظر الى الشيء بمجامع عينيه ، ولحظ : أى نظر من جانب أذنه ، ولحه : نظر اليه في عجلة ، وحدجه : رماه ببصره مع حداثة ، وشفن : نظر كالمتعجب أو الكاره فان أدام النظر في سكون طرف قيل رنا ... الى غير ذلك مما نراه مبسوطا في كتب اللغة عامة ، وفي المخصص لابن سيده بنوع خاص .

وكذلك دقة التعبير في التراكيب واتيانها على مقتضيات الأحوال . وربما كان من أبرز ذلك مزيدات الأفعال وصيغ المشاركة ، وهذا من خصائص اللغة العربية . ذلك أنه يمكن التعبير باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لا يتأتى التعبير عنها في غير العربية الا بعدة ألتاظ ، مثل تقاضوا وتقابلوا .

وينبغي ألا تنسى أن بيئة العرب كانت قليلة التنوع ، فهذه الدقة محدودة في نطاق ضيق ، حتى لقد اضطر العرب منذ الاسلام أن يعربوا كثيرا من الألفاظ التي لا عهد لهم بمسمياتها .

(١) انظر الجزء الثاني من الزهر للسيوطي .

٣ — الايجاز : والعرب أقدر على هذا النوع من البيان من غيرهم من الأمم التي لا تخلو بلاغتها من شيء منه . وقد تصل العبارة من القصر الى حد الأيحاء والاشارة ، مع اشتغالها على المعنى ووفائها بالعرض ؛ كالمثل والحكمة . وقلما تكون لغة من لغات العالم كالعربية في هذين الأمرين .

٤ — الترادف والتضاد : وقد فاق العرب فيهما سائر الأمم ؛ فعندهم أنمطر والريح والنور والظلام والأسد والسيف والناقة والخمر والماء والبشر أسماء كثيرة ؛ من عشرين في بعضها الى ثلثمائة في بعضها الآخر ، وكذلك الشأن في الأوصاف ... فللطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يعبر بها عنها تعدد ثروة واسعة في اللغة ومفرداتها .

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد وظواهره ، ثم توسيت هذه الأحوال بالتدرج ، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال وغلبت عليها الاسمية^(١) .. فان الحظائر والحطام والباسل والأصيد من أسماء الأسد ، ولكل منها وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر . وكذلك ما يعد من أسماء السيف كالمصمم والصمصام والهندي والهندواني والحسام والعضب وغير ذلك .

وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله في العربية لغات لقبايل مختلفة ، ولم يراع نقلة اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه .

والترادف عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأستاذ عند محاولة البسط والترغيب في فضائل الأمور والبلوغ الى تقريب الغامض من حقائق الأشياء ، وتكشيف المعاني المبهمة بعرضها في جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها في النفوس .

وأما التضاد ، وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده ، فهو من خصائص اللغة العربية ؛ كالجون للأسود والأبيض ، والجلال للعظيم والحقير ، والشكف للزيادة والنقصان ، والصكرم للصبح والليل المظلم . وفي اللغة مئات الألفاظ من هذا ونحوه يدل كل واحد منها على الشيء وضده . وينبغي أن يلاحظ في التضاد أيضاً

(١) أرجع الى كتاب علم اللغة للدكتور على عبد الواحد .

اختلاف الوضع كما سبق ، لأن الأصل في وضع اللفظ أن يكون أداة للفهم ، لا وسيلة إلى الإبهام والتعمية .

٥ - الاشتراك اللفظي : أى دلالة اللفظ الواحد على المعانى الكثيرة . وقد يكون هذا من عيوب اللغة وقصورها ، إلا إذا استطاع المتكلم أن يجد لهذه المعانى دوالاً أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظي . فقد قدمنا أن الانسان في بدء نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعانى الكثيرة ، وكان ذلك من معانى العجز في اعتبار علماء اللغة عن إيجاد الكميات اللغوية لهذه المعانى ، إذ كانت اللغة لا تزال حينئذ في طور الوجود الأول تقريب . واذن لا ينبغي أن يعد الاشتراك اللفظي دليلاً على رقى اللغة إلا على هذا النحو الذى قدمناه . ومن ذلك مثلاً كلمة الروح : فهى ما به الحياة ويؤت ، والملك ، والوحى والقرآن ، وجبريل ، وعيسى . ومن ذلك كلمة العين : فهى للباصرة ، والجارية ، والسحاب ، واليد ، والدينار ، والذهب ، والباسوس ، والكبير من القوم ، والمشهور من الناس والأشياء . وكذلك كلمة الخال : فهى لأخى الأم ، واللواء ، والظن ، والكبر ، والشامة .. وغير ذلك كثير فى اللغة نكتفى منه بما ذكرنا .

(د) اختلاف اللهجات :

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع فى جملته الى ثلاثة أوجه ، ويلاحظ أن العلماء كثيراً ما يضعون اللغة مكان اللهجة .

الأول : ما يمكن من تنوع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ ، وهو أهمها . ويرجع سببه فى الغالب الى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة ، كالذى يرى الآن فى القرى المتجاورة والمتباعدة فى أعلى مصر وأسفلها . ومن أمثلة ذلك قول بعضهم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما ترى فى رجل فطحى بضمى » ، فقال له : وما عليك لو قلت : ضحى بظى » ، فقال : انها لغة بكسر اللام ، فكانت هذه أعجب (١) .

الثانى : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات ، وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق . ومن ذلك أن أبا هريرة رضى الله عنه لما قدم من دوس

(١) انظر كتاب البلغة لصديق خان ص ٦٧

« وهى بطن من الأزدي اليمنية » ، عام خبير لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة عنة ويسرة ولم يفهم المراد ، فكرر له القول حتى قال : ألمدية تريد ؟ وأشار إليها ، فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكيناً^(١) ؟

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربى ، مع اطباق العرب على النطق بخلافه . وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك قد وقع لهذا العربى من لغة قديمة طال عليها العهد ، وبادت آثارها .

واذن يكون التعويل فى اختلاف اللهجات على الوجه الأول ، وهو لا يتعدى صورة النطق بالكلام ... ويلحقها فى بعض الأحيان ابدال حرف بآخر ، كابدال الميم بباء والياء ميما فى لغة مازن ، اذ يقولون : با اسمك ؟ مكان : ما اسمك ؟ ويقولون^(٢) : مكر فى بكر ، وكردد الكلمة بين الادغام والفاك ، وبين الاتمام والنقص ، أو بين الصحة والاعلال ، والاعراب والبناء ... فمثلا أهل الحجاز يفكثون المضارع المضعف المجزوم بالسكون وأمره ، وتميم تقولهما بالادغام . وخثعم وزيد تنقص نون «مين» الجارية ، فيقولون : خرجت ملبيت ، كلغة عامة أهل مصر فى قولهم : خرجت من البيت ، وغيرهم من العرب يتما . وطيء شعيل الأفعال الثلاثية التى من باب فرح ، كبقى ورضى بقلب يائها ألفا وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها . وقيس بن ثعلبة تعرب لذن ، وغيرهم بينها .

هذا الى أنه قد كان لكل قبيلة عيب فى النطق ، اشتهر منه : عجمجة قضاة ، وهى جعل الياء بعد العين جيما ، مثل قولهم : الراعج فى الراعى .. وطمطمانية حمير ، وهى جعل أم بدل ال ، وبلغتهم الحديث الشريف : « ليس من امبرء امصيام فى امسفر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر .. وتلتة بجراء . وهى كسر أحرف المضارعة مطلقا ... وفحفة هذيل ، وهى جعل الحاء عينا ، مثل : انعسن فى الحسن ، واللعم فى اللحم .. وعننة تميم ، كقولهم فى أن عن ، ببدال الهمزة المبدوء بها عينا ... وكشكشة أسد وربيعة ، وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل : عليش فى عليك ... وكسكة هوازن ، وهى

(١) الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب لابن السيد البطليوسى ص ١٨١

(٢) انظر فى ذلك مقدمة ابن خلدون ، والمزهر للسيوطى .

زيادة سين بعد كاف المؤنث ، فيقولون : أعطيتكس ومنكس ... وتخلخانية الشجر ، كقولهم : مشا الله ... واستطاء أسد . كقولهم : أنطى فى أعطى بجعل العين الساكنة نوناً مع الطاء ... وششنة الين ؛ وهى جعل الكاف شيئاً مطلقاً نحو : شلمنى فى كلمنى ، وابئيش فى لبئيك ... وقطعة طيء ؛ وهى حذف آخر الكلمة ، فيقولون : يا أبا الحكا فى يا أبا الحكم ؛ كما فى لغة كثير من أقاليم مصر .

هذا وقد أتى تهذيب اللغة فى أدواره المختلفة على أكثر هذه الهنوت الا ما كان منها تابعا لتأثير البيئة ، فقد بقى منه شئ حتى بعد ظهور الاسلام . ولا يزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين باللغات من جميع الأمم المختلفة .

(هـ) أطوار تهذيب اللغة وعوامله :

ليس من المعقول أن تكون اللغة - كما يقول بعضهم - قد برزت لنا من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة . ومن المحقق أنها تقلبت فى أدوار مختلفة وأدهار طويلة ، تنازعها فيه ما يتنازع الأحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقى والانحطاط . ومن العيب أن ينطاول انسان الى تحديد الزمن الذى تمثلت فيه اللغة بصورتها المروية لنا . وكل ما يقال فى ذلك يراعى فيه تقريب هذه الحقيقة الى التصور على وجه من وجود تغليب الظن ليس غير . ومما لا شك فيه أيضا أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها فى بعض ، ولاتحاد أكثر قبائلها فى كثير من دواعى المعيشة وأساليب الحياة ، ولما كان بينهم من الأواصر القوية فى الجنس وطبيعة البيئة والعادة .

وذلك - بجانب ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التى سنذكرها بعد - قد أدى كله الى تخلصها من الاختلافات وتقاءها بالتدريج من الوحشية والغرابة ، وصيرورتها الى درجة من الوحدة والمذبذبة صلحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الاعجاز ، واشتملت على أعلى مراتب البيان والفصاحة . ويرجح الباحثون أن من بين هذه الأسباب^(١):

(١) اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان ص ٤٨

١ — تقيح اسماعيل عليه السلام ، وهو أصل العربية العدنانية كما ذكرنا . ولا يبعد أن يكون ذلك الهاما الهيا خص الله به نبيا من أنبيائه ، أو يكون ذلك على الأقل ناجما عما امتاز به ذلك الأب العربي عن سائر أهل عصره من سلامة الفطرة وقوة الذكاء وحسن الاختيار والتتبع ، مع ما يلحق بذلك من تطاول الزمن الذى هو وعاء طبيعى لبلوغ الكائن الحى درجة من الكمال فى تدرجه الى الارتقاء . واقرن ذلك الوقت بظهور اسماعيل عليه السلام ، ثم درج العرب بعد اسماعيل على هذا السنن الفطرى من الانتقال فى مدارج النمو والتحسين . وقد اشترك فى هذا التهذيب أكثر القبائل العربية ، اذ كان بعضهم يأخذ من بعض بالمخالطة والاجتماع فى أيام وقائعهم ، وعند تلاقحهم فى الاتجاع ، وخروجهم فى المنافرة الى الحكام ، واحتشادهم للمفاخرة بالأصايب والأنساب . وكان للشعراء من هذا الاصلاح نصيب لا يقل عنه ما كان للأشراف من خطباء العشائر فى محاكاة العامة لهم ، واجتهادهم فى مساماة ألسنتهم ، حتى نشأ بينهم التنافس فى احكام اللغة والمفاخرة بالبيان . ويمكننا أن نعتبر ذلك الدور الأول .

٢ — وكان الدور الثانى هو استفحال نهضة قريش وتسنمهم ذروة النفوذ الأدبى ، واستحواذهم على السيادة العامة فى جمهرة القبائل العربية . وقد وصلت لغتهم الى درجة عالية من الفصاحة ، وأخذت بأطراف المدونة ، وأقبل العرب يحاكونها ويمشون على أثرها ، حتى انتهى آخر ذلك الاصلاح القرشى بظهور الأسواق الأدبية التى كان لقريش فيها أيضا من الفضل ما لها ، اذ كان العرب يرجعون الى منطقتهم ، ويتأثرون بحدوثهم فيما يُحدثونه من القريض وما يجبرونه من الخطب التى يتحاكمون فيها الى قضاة يُصدرون عن رأيهم ، ويسمعون لحكمهم فى هذه الأسواق التى أشهرها عكاظ ، وهى موضع بين نخلة والطائف ، وقد أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وبقيت بعد الاسلام ، وان لم تكن فى شأنها الأول ، حتى نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة . وكانت تقوم هلال ذى القعدة الى عشرين منه ، ثم ينتقل العرب منها الى مَجَنَّة ، وهى موضع قرب مكة ، ثم الى ذى مجاز ، وهى على فرسخ من عرفة ، فيكونون بها الى أيام الحج .

وكان الأشراف من العرب انما يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم الا عكاظ ، فانهم كانوا جميعا يتوافدون اليها لمفاداة أسراهم ، والتحاكم في خصوماتهم ، وللمفاخرة بالأحساب ، والتباهى بصفات الفضائل : من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والأشعار والخطب . وفيها أنشد عمرو بن كلثوم مطولته فيما يقول بعض الرواة . وكان للنابغة الذبياني قبة تُضرب له يتحاكم اليه فيها الشعراء ، كما هو معروف ، وقصته مع الأعشى والحسناء وحسان مشهورة . وفيها خطب قس بن ساعدة الأيادي خطبته المشهورة ، وقد شهدته رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جبل أورق .

وقد كان هذا الاجتماع العام مظهاً جميلاً من مظاهر الحضارة ، يقتضى طبعاً تجويد المنطق ، وارهاف اللسان ، والمبالغة في اتقان صناعة الكلام ، والاجتهاد في مقارنة العذوبة في لغة قريش التي لم يقتصر فضلها على حمل العرب في جملتهم على اتباع مناهجها والتأثر بأسلوبها ، بل كانت لا تزال تشهد هذه المواسم ، وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل في هذا الدور الأخير من التهذيب ، حتى بلغت لغتها الى أرفع مراتب الكمال اللغوي في هذا العصر .



وبعد ، فهناك حقيقة خليقة بالذكر ، وهي أننا نلاحظ أن اللغة العربية تكاد تكون أقل اللغات تطوراً على مر العصور . ومرد ذلك أنها لغة القرآن ، والقرآن ، فضلاً عن كونه كتاب المسلمين الأقدس ، هو كتاب العربية الأول ، ونموذج رائع معجز ، تمنو له جباه أساطين البلاغة والبيان . كل ذلك جعل لغة القرآن تصبح قدوة الكتّاب ورائد الأدباء في كل عصر ، مما حال دون أن يلمّ باللغة العربية كبير تطور كذلك الذي أصاب سائر اللغات العالمية ، ومما باعد بين لغتنا الفصحى ولغتنا العامية المتطورة .